إن يسألوك عن: الأمن الإسرائيلى قل: إنه القاموس السياسى كله!

أنيس منصور

التعبير

الشرق : شرق . والغرب : غرب . وهما لا يلتقيان .

عندما أعلنها رديارد كبلنج شاعر الامبراطورية البريطانية فى أوائل هذا القرن . لم يكن يتنبأ بما سوف يشعر به العالم يوم ٢٦ مايو القادم . عندما قط شفاهنا ونهز أكتافنا تعليقا على النعت الاسرائيلى فى محادثات الحكم الذاتى للشعب الفلسطينى . .

تماما كما أن يتوقع عندما ألف السيمفونية الخامسة التى سميت « ضربات القدر » لم يكن يتنبأ بأن هتلر سوف يذيعها عند نهاية الحرب العالمية الثانية . ليبشر الشعب الألمانى للهزيمة والاستسلام ! . .

فما هى المشكلة التى لم تفلح جميع الأطراف فى حلها . أو الاقتراب منها ولا فى حلها ؟ .

لابد ان نعود إلى اتفاقية كامب دافيد التى وقعناها واتفقنا على تنفيذ ما جاء فيها . فقد اتفقنا على « الحكم الذاتى » للشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية وقطاع غزة . ومعنى ذلك أن يحكم الشعب الفلسطينى نفسه بنفسه . وأن يختار شكل الحكم والحكومة . وأن نشترك معه الأردن بعض الوقت . حتى نضمن للشعب الفلسطينى الأمن الضرورى والحرية فى الاختيار . . أى فى القرار . وكل ذلك متفق عليه ومعروف عالميا . .

ونحن نعلم كل الصعوبات فى المفاوضات . ونعلم المستحيل والممكن . ونعلم العاجل والآجل . ونعلم الصراعات السياسية والعنصرية والاجتماعية فى إسرائيل . ونعرف المساومات العربية والاتصالات السرية بين الأردن وإسرائيل . ونعرف من الذى يريد حلا . ومن الذى لا يريد حلا من بين العرب . ونعرف ما قاله السيد ياسر عرفات من أن المسافة التى بينه وبين السيد مناحم بيجين أقصر بكثير من المسافة التى بينه وبين الملك حسين . .

وقد حاول الرئيس السادات أن يدفع مفاوضات الحكم الذاتى إلى الأمام . فاقترح على السيد مناحم بيجين فى أسوان والعريش وباقا . الاتفاق على مدلول الحكم الذاتى مرة واحدة . بعد ذلك يصدران « التوجيه السياسى » النهائى . ويتركان للوزراء أن ينجزوا هذا العمل . تماما كما اتفقنا على كل ما يتعلق ببناء . حتى لم تعد بناء مشكلة . فكل رمالها وصخورها وجبالها تنطلق الآن نحو حدود ١٩٦٧ . وفى نفس الوقت دون تهديد للأمن الإسرائيلى ! . .

وكان السيد مناحم بيجين عندما يسمع تعبير « التوجيه السياسى » يعبس وجهه ويهز رأسه ولا يقول شيئا . . وهو يعنى بذلك : أنه لا يستطيع أن يتخذ قرارا بهذه الخطورة دون الرجوع إلى مجلس الوزراء . فإذا فعل . فسوف يستغرق مجلس الوزراء ساعات من المناقشات الطويلة العنيفة . دون أن تظهر فى الصحف الإسرائيلية بقعة دم واحدة ! . .

فما الذى أصاب السيد مناحم بيجين ؟ . .

لقد كانت شخصية وعقلية بيجين سببا قويا فى إقدام الرئيس السادات على السفر إلى القدس. فالسيد بيجين شخصية قوية شعبية، وهو قادر على اتخاذ القرار، فإذا اتخذه فهو قادر على الإقناع به. وقد تأكد ذلك بمفاوضات كامب دافيد، ومعاهدة السلام مع إسرائيل، وفى مناقشاته فى الكنيست ومعاركه فى مجلس الوزراء. فهل هذا هو أقصى ما يستطيع ؟

إن السيد مناحم بيجين قد تغير كثيرا جدا. فلو عدنا إلى ما كان يقوله وهو زعيم المعارضة لوجدنا أننا أمام شخصية أخرى مختلفة. ولا يقوى على هذا التغيير إلا رجل قوى.

ويمكن أن نذكر مثلا واحدا على صدى ذلك فى الشعب اليهودى. فالسيدة جولدا كوهين، عضو الكنيست انضمت إلى حزب بيجين عندما أعلن رفضه لمبادرة روجرز. وقد أعجبها هذا التشدد وهذا العنف، فى مواجهة أية محاولة لتصفية إسرائيل واحتلالها فى أرضها الضيقة !!

ولكن السيدة جولدا كوهين خرجت من حزب بيجين عندما أعلن قبوله لمبادرة السادات، وفى الكنيست مزقت اتفاقية كامب دافيد، ومضت تعارضه، وأشاعت فى حزبها الجديد اسم حزب «تحيا» أى «البعث»، ومضت تشهر به فى كل مكان. بل إنها ذهبت إلى أمريكا قبل زيارة السيد بيجين الأخيرة، وأخذت تشوه صورته وتقلل بالوصل على تاريخه كله، وتركز فى الندوات التى عقدتها فى كل مكان: أن بيجين هو الرجل الذى يتراجع أمام السادات، ويتعجل بهاية الشعب اليهودى فى إسرائيل ؟ !

والذين يتابعون تاريخ السيد مناحم بيجين يؤكدون أنه لا يستطيع نفسيا ودينيا وصحيا أن يسلم الضفة الغربية - أى مملكتى السامرة ويهودا بل العرب. وأن السيد مناحم بيجين، وهو الذى لديه إحساس قوى بأنه شخصية تاريخية فذة، يرضيه أن يخلق سلاما مع مصر، فيستحق عليه جائزة نوبل. ولكن يروعه أن يدخله التاريخ من الباب، ثم يلقيه من النافذة إذا هو تخلى عن يهودا والسامرة.

أما أعصاب السيد بيجين فهى التاريخ والتوراة.. أو هى «الأمن» الإسرائيلى.

وفى كل مرة تزوره شخصية أوروبية أو أمريكية، فإن السيد بيجين يفتح نافذة مكتبه ويشير بيده إلى القرى الفلسطينية، ويقول إن فى استطاعة أى فلسطينى أن يطلق النار على مكتبه أو على أى مواطن إسرائيلى. أى أنه لا أمن لإسرائيل مع الوجود الفلسطينى المستقل.

وفى أول زيارة للفريق كمال حسن على لإسرائيل، أركبوه طائرة هليوكوبتر، ليرى «الحدود» بين إسرائيل والضفة الغربية - لعله يرى الملا «حدود» بين الضفة وإسرائيل - أى استحالة أن تكون هناك حدود.

❦❦❦

وكلمة «الأمن» يقف اليهود صفا واحدا، على اختلاف المذاهب السياسية والدينية والعنصرية. وسبب ذلك هو «الخوف» التاريخى عند اليهود الذين لم يعرفوا الأمن فى أى بلد وفى أى عصر.

فهم شعوب «اقتلعت» جذورها من كل أرض. ولذلك فعندما أصبحت لهم دولة فهم يريدون أن يكونوا أشجارا على أرضها، يعمقون جذورهم وأصولهم. ولذلك كان «جنوحهم» بالتاريخ - أى بالبحث عن الجذور فى إسرائيل أو فى أى بلد فى العالم. ولأنهم عاشوا فى «حوارى اليهود» فى كل بلد، فهم ما يزالون يشعرون بأن إسرائيل هى أكبر حارة لليهود، ضيقة خانقة ومحفوفة بالأعداء من كل مكان. ولهذا السبب: كان خوفهم من الانسحاب والعودة إلى الأرض الضيقة، وكان استعدادهم العسكرى دائما. وهذا الخوف جعلهم يبنون الظن بأنفسهم وبغيرهم. وجعلهم يعتمدون دائما على «الأخ الأكبر» - الأخ الأمريكى أو الأخ الروسى. وقبل ذلك كان الاعتماد على الأخ الأكبر البريطانى أو الفرنسى. فلا يمكن أن نعرف معنى «الأمن» دون أن نعود إلى معانى الخوف والطرد والاضطهاد والاقتلاع والإبادة وفرض الواقع بالقوة. وإشاعة السلام بالحرب !..

ولذلك تعارضت وسائل مقاومات الحكم الذاتى. لأنها تهدد «الأمن» الإسرائيلى. ولا يوجد - حتى الآن - تعريف واحد واضح للأمن عند إسرائيل. وهم لا يريدون أن يضعوا هذا التحديد. لأنهم ليسوا فى حاجة إليه. فهو يتضمن الحياة نفسها. فلو أشعل أحد أبناء الضفة الغربية نارا، وكان للنار دخان، وتسلل الدخان - وهذا طبيعى - إلى بيت أحد سكان المستوطنات. لأحس اليهود بأنه خطر على أمنهم. ولذلك فلابد من الاتفاق منذ الآن على نوع الوقود الذى يستخدمه العرب حتى لا يختنق الشعب اليهودى.

وكذلك استخدام الراديو والميكروفونات والتليفزيون والسينما. ولو أصيب بالزكام مواطن فلسطينى، فسوف يرتجف اليهود لأن أصاب واحد منهم بالزكام - وأنا لا أحاول أن أكون ظريفا لعلك تضحك. ولكنها حقيقة الباحثات بشأن الحكم الذاتى التى تعرفت إلى ما هو أغرب وأعجب من ذلك !

وقد تضحك عن ذلك. ولكنهم فى إسرائيل لا يضحكون. فالخوف فى الدم، وسوء الظن فى الطبع.

وليس العرب كالمصريين. فقد جرب الإسرائيليون التعامل مع كل العرب. وانتهوا إلى أن المصريين مختلفون. ولذلك لم يكن غريبا أن يقول أحد الوزراء الإسرائيليين للرئيس السادات: يا سيادة الرئيس اضمن لى أن يكون العرب واقعيين كالمصريين، وأنا أترك الضفة والقطاع غدا صباحا !..

إذن فكلمة «الأمن» من الممكن أن تكون عنوانا للقاموس السياسى كله. فما أتوقف المعانى وأتوقف التحفظات..

اذكر أنى ذهبت إلى تناول الغداء عند أسرة فلسطينية فى نابلس. وكان معى صديق إسرائيلى معروف. وجاء الطعام الكثير. وفجأة وجدت صديقى يتوقف عن الطعام. وسألنى فى فزع: هل ترى ما أرى؟ فقلت: ماذا؟ فأشار بيده إلى خارج البيت. فقد كان هناك عشرات الأطفال الصغار يلعبون. فقال: كل هؤلاء الأطفال سوف يحاربون أطفالنا فى المستقبل. إنهم كثيرون جدا. ونحن لا نستطيع أن نحارب العرب فى تزايد السكان !

❦❦❦

وإذا كانت كلمة «الأمن» قد تربعت على عرش الفكر السياسى الآن. فقد سبقتها كلمات أخرى. هذه الكلمات أسقطتها التجربة العسكرية والسياسية أيضا. فقد كانت هناك تعبيرات «الهدنة»

لم يوافق بيجين على إصدار توجيهات سياسية بشأن الحكم الذاتى

و « وقف إطلاق النار » و « إعادة تخطيط الحدود » أو « إعادة تحديد الخطوط » . .

وبعد حرب سنة ١٩٦٧ ظهرت تعبيرات أخرى مثل : « حدود آمنة ومعترف بها » . وقد ظهر هذا التعبير فى « ورقة العمل » التى تقدمت بها كندا والدنمرك إلى مجلس الأمن فى أكتوبر سنة ١٩٦٧ .

وقدمت أمريكا فى مذكرة أخرى . أنه لم تكن هناك فقط « خطوط آمنة ومعترف بها » لا فى حرب ١٩٤٨ ولا فى حرب ٥٦ ولا فى حرب ٦٧ أو بعدها

وجاءت حرب أكتوبر فأطاحت بالحدود الآمنة . عندما تلاقى خط بارليف . فلا حدود آمنة أمام الأسلحة الحديثة . لأن الأمن ليس خط بارليف أو خط ماجينو أو خط سجفريد . أو حائط الصين العظيم . أو حائط الفنادق بين مصر وليبيا

إنها الأمن فكرة أو اتفاق على فكرة . وعندما نتفق على هذه الفكرة يكون الاتفاق هو الحدود الآمنة المعترف بها . وفى استطاعتنا أن نتساءل عن الحدود بين الولايات المتحدة وكندا . أو بين الولايات المتحدة والمكسيك . أو بين كل الدول الأوروبية التى تمر بها ويربطها ويباعد بينها بحر المانش ! . .

وحتى بعد انسحاب إسرائيل من أرض سيناء . ليس الأمن أن تكون الصحراء بيننا . ولا أن تباعد القوات . ولا أن تكون هذه القوات محدودة العدد والسلاح والذخيرة . ولا أن تكون هناك مناطق منزوعة السلاح . ولا محطات إنذار مبكر . فكل ذلك يمكن أن يتجاوزه فى لحظة واحدة . صاروخ أو طائرة . ولكن الأمن هو الاتفاق بيننا على ذلك . .

وفى القاموس السياسى كلمات أخرى جعلناها أصناما وأحرقنا حرقا البخور . مثل كلمة « الوفاق » بين أمريكا وروسيا . وهى كلمة فرنسية غير دقيقة . وهى فرنسية لأن الغرب الدبلوماسى فرنسى . وهى مثل كل الكلمات الفرنسية مطهوة ومعروفة عند الفرنسيين فقط . ولكنها ليست واضحة عند الأمريكان أو السوفيت . وكلا أحس الأمريكان أو السوفيت بحدة الخلاف فزعوا . وقالوا : إن هذا لا يتفق مع روح الوفاق – فلما يرجيف مرة واحدة ؟ .

وإن كان السوفيت يفضلون تعبيرا آخر هو « التعايش السلمى » . وهذا التعبير قد ابتدعه لينين . وقد استخدمه الأمريكان مرة واحدة فى الاتفاق الذى عقده نيكسون فى موسكو

الجريل أول كوكا حصل على فى طائرة لبرى الحدود بين اسرائيل والضفة الغربية

سنة ١٩٧٢ . وقد شعر السوفيت بالقهر والغطسة لأنهم أرغموا الأمريكان على استخدام تعبير لينين القديم . .

ولكن أين هذا « الوفاق » عندما حارب السوفيت قلك الاشتباك الأول بين إسرائيل ومصر وسوريا . أو أزمة قبرص . أو حرب أنجولا . أو حرب الهند وباكستان . أو أثيوبيا . أو احتلال الجن الجنوبية . أو غزو أفغانستان ؟ . .

وبعد الحرب العالمية الثانية استخدما تعبير « الحرب الباردة » – أى الحرب الدعائية والنفسية دون الالتجاء إلى السلاح . وقد استعارت أمريكا هذا الأسلوب . فهددت باستخدام القوة دون اللجوء إليها ٢٢٥ مرة فى الثلاثين عاما ! . .

والحرب الباردة معناها « السلام الساخن » – أى الحرب إلا قليلا أو السلام إلا قليلا .

وإذا كان المؤرخ العسكرى كلاوسفتس هو الذى قال : الحرب هى استمرار للسياسة بأساليب أخرى . فإن السوفيت يرون أن السياسة هى استمرار للحرب بأساليب أخرى .

فالوفاق معناه : الحرب التى هى لا حرب . والسلم الذى هو لا سلم . .

ولذلك كان تعبير « الأمن » الإسرائيلى هو الوتد الحديد الذى أقامته إسرائيل حاجزا وحائلا وعائقا دون الاتفاق على معناه . أى على حدوده المقبولة منا ومن العالم كله . .

وقد استمع الرئيس السادات فى الأسابيع الأخيرة إلى شخصيات يهودية عالمية تؤكد له معنى واحدا . هو : أن السيد مناحم بيجين ليس « جاهزا » نفسيا وسياسيا وتاريخيا وصحيا لتحديد معنى الأمن تمهيدا لقيام الحكم الذاتى .

وبعض هذه الشخصيات تذكرنا بما جاء فى كتاب السيد مناحم بيجين « الذى عنوانه « التمرد البيضاء » ففى هذا الكتاب يتحدث عن الحكم الذاتى فى داخل السجون ويرى أن الحكم الذاتى هو أن يكون الإنسان حرا فى أن يغسل ملابسه وأن يطهو طعامه فى داخل السجن ! . .

أيها حرية السجين . أى حريته فى سجن لا يملكه على أرض لا يملكها ! .

حتى هذا المعنى للحرية لم أعرف لها . .

جيولا كوهين . ترفت معاهدة كامب دافيد

وقبل أن يحل يوم ٢٦ مايو القادم،أشاع بعض العرب انهم متجهون إلى بغداد لعقد مؤتمر قمة . . فهل هذا المؤتمر – إذا انعقد ؟ – رد على قمة طرابلس التى رفض المشاركون فيها بعضهم البعض . فالفلسطينيون أنكروا القرارات التى اتخذت بشأن قطع البترول والغاز . والاعتراف بجمهورية الصحراء التى أقامتها جبهة البوليساريو ؟ . .

وأوضح ما فى هذه القمة ، الوهمية ، : حماسة الملك حسين . فالملك حسين يريد أن يلتقى بالمولين السعوديين والعراقيين قبل سفره إلى لقاء الرئيس كارتر أى يريد أن يضمن فلوسه السعودية والعراقية . وبعد ذلك يبيع السعودية والعراق للرئيس كارتر . ثم يقبض ثمن مياه نهر اليرموك التى سوف يبيعها لإسرائيل .

وقد أعلن الملك حسين أنه هو الذى رفض السفر إلى أمريكا . ونحن نعلم أن الرئيس كارتر هو الذى رفض طلب الملك حسين مرتين ! . . والملك حسين ، تطبيقا لاتفاقية كامب دافيد ، يرى أنه قد وضع الضفة الغربية فى جيبه . وأن دوره آت لا ريب فيه . .

وقد أعطأ الرئيس السادات عندما وضع الملك حسين فى اتفاقية كامب دافيد ، وجعله طرفا فى مرحلة من مراحل الحكم الذاتى . وعندما أشرك الأردن فى دوريات الأمن مع إسرائيل .

ولكن الرئيس السادات ليس نادما على ذلك . وكل ما يرجوه الرئيس السادات للملك حسين هو أن تمنحه السعودية والعراق كل ما يطلبه من مال ، ليطمئن على مستقبله ولساهم معا فى رفع العذاب والشقاء عن الشعب الفلسطينى .

والملك حسين ينسى أنه لن يحصل على شىء من الضفة الغربية دون موافقة الشعب الفلسطينى . وعلى ذلك فكل ما يتصور أنه فى جيبه ، ليس إلا فى جيب الفلسطينيين !

ثم إن اتفاقية كامب دافيد ، ليست إلا خطوة فى طريق طويل صعب وشديد التعقيد . ولكن رغم هذه الصعوبة ، فإننا قد أفلحنا فى إعطاء الثلج الناصع خطوات مثيلة . ثم إن السلام مع مصر ليس إلا خطوة فى طريق الحل الشامل – أى السلام بين إسرائيل والشعب الفلسطينى والسورى واللبنانى والأردنى .

ولا يمكن الرجوع إلى الوراء فى شىء قد حققناه وأنجزناه . .

لقد مضى ذلك الزمن الذى كانت فيه السياسة العربية الإسرائيلية مثل كرة القدم . تسجل فيها الأهداف العسكرية ، ثم تعود إلى خط الوسط ، لتبدأ المباراة من جديد . حربا بعد حرب ! . .

وموقف مصر واضح معروف . وفى عبارة واحدة : إقامة المستوطنات عمل غير مشروع ، وكذلك تغيير معالم القدس الشرقية التى هى جزء من الضفة الغربية،بقرار من الجمعية العامة فى ٤ يوليو سنة ١٩٦٧ وتوافقه أمريكا قبل رئاسة كارتر . ثم إننا لسنا لسان الشعب الفلسطينى . إنما نحن نرصف له الطريق ونكفله ونرشه قبل أن يؤدى دوره باعتباره صاحب المصلحة الحقيقية . ومن أجله كانت الحروب ضد إسرائيل ومعاهدة السلام معها . .

وفى آخر جديث بين د . مصطفى خليل والسيد مناحم بيجين قال رئيس وزراء إسرائيل : هذا هو موقفنا .

أى ان الصمت والتوسع المطلق فى معنى « الأمن » هو آخر ما عنده من أفكار .

وكان رد رئيس وزراء مصر : ونحن أيضا لنا موقف . . .

بيجين : الوفاق بين الحرب الباردة والسلام الساخن .

رئيسى اكتشافاً سياسياً جديداً أن يقال : إذا لم يكن هناك سلام شامل مع العرب ، فلا سلام لإسرائيل فى هذه المنطقة . ولابد لإسرائيل التى تحكمها أقلية عربية ، من أن تكون دولة شرقية فى الشرق الأوسط . . لابد أن تكون فى سلام مع الشرقيين فى داخلها وخارجها . أما إذا أصر الغربيون فى داخلها على أن يكونوا غربيين وأن يفرضوا « الغرب . . على الشرقيين . فهم أحرار فى أن يزعموا بما قاله الشاعر كيبلنج . وهو ما يؤمن به السيد بيجين أيضا !

ولكن لابد أن تتعايش إسرائيل فى سلام ووفاق . وأن تنهى الحرب الباردة والسلام الساخن . ليكون فى الأمن الذى تتمناه . فلا أمن بالحديد والنار . . ولا أمن بأن يتحول الخوف الإسرائيلى الغريزى ، إلى إرهاب للعرب أو إجهاد لنارهم . وتهديد لحديدهم ، قبل أن ينتهى الاحتلال العسكرى للأرض العربية . .

إن السلام مع مصر إنجاز عظيم . ولكنه ليس السلام « الشامل » الذى طالبنا به منذ بيان الرئيس السادات فى الكنيست .

وفى الأسبوع الماضى قد أشرت إلى احتمال « انسحاب » مصر من مفاوضات الحكم الذاتى فى هرتسليا . . ولم تنسحب مصر . لأن اجتماعا واحدا لم ينعقد بين الأطراف الثلاثة . إنما كانت « لقاءات » على فنجان قهوة . أو للتعليق على ما نشرته الصحف المصرية أو الأخبار الكاذبة التى تنشرها صحف إسرائيل لإثارة الشعب ضد المفاوضات . أو لاستنكار ما حدث فى مدينة الخليل .

وإذا لم تكن صورة ريجارد كيبلنج . ذلك الاستعمارى الذى ولد فى الهند وفكر بخارة بريطانيا ورأى انه لا امل فى ان يلتقى الشرق والغرب . واضحة لكل عين . فإن نغمات السيمفونية الخامسة لبيتهوفن تدق كل الآذان . ومهما كان العالم كله طرفا فى قضية السلام . فإن الوقت للآسف يداهم إسرائيل !

أنيس منصور